

الباب العشرون

الآداب والفنون في القرن الرابع

الفصل الأول

الخطباء

كانت الآداب في أثناء هذا الاضطراب كله ينعكس عليها ما انتاب بلاد اليونان من اضمحلال في الأخلاق وضعف في صفات الرجولة . فلم يكن الشعر كما كان من قبل تعبيراً عاطفياً إبداعياً يتكبره الأفراد ، بل أصبح تدريجاً ظريفاً وثمررة من نتاج العقول في الندوات ، وصدى للواجبات والتمازين المدرسية . . نعم إن تموثيوس الملطي كتب ملحمة شعرية ، ولكنها لم تكن توائم عصر الجدل والنقاش ، وظلت بعيدة عن الشعب بعد موسيقاه في عهد ما بالباكر ، وظلت المسرحيات تمثل ولكن تمثيلها كان أضعف وأضيق نطاقاً من ذي قبل . ذلك إن إقفار خزانة الدولة من المال وضعف الروح الوطنية عند الأثرياء من الأفراد قللاً من أقدار الممثلين وأفقداهم ما كان لهم من شأن في ماضى الأيام . واكتفى كتاب المسرحيات شيئاً فشيئاً بالمقطوعات الموسيقية التي تعزف بين الفصول ولا صلة لها بالمسرحية بدل الأغاني التي تكون جزءاً منها ، واختفى اسم رئيس فرقة الممثلين فلم يعد مما يهتم به النظارة ، ثم اختفى بعدئذ اسم الشاعر نفسه ، ولم يبق إلا اسم الممثل . وبعدت المسرحية بالتدريج عن القصيدة وأضحيت شيئاً فشيئاً عرضاً للحوادث التاريخية ، وأصبح العصر كله عصر كبار الممثلين وصغار الكتاب المسرحيين . ذلك أن المأساة اليونانية قد قامت على الدين والأساطير ،

وكانت تتطلب شيئاً من التقى والإيمان عند المستمعين ، ومن أجل هذا كان لا بد أن يضمحل شأنها حين أوشكت شمس الآلهة على الأفول :

وازدهرت المسلاة في الوقت الذي اضمحلت فيه المأساة ، وانتقل إليها بعض ما كان يتصف به مسرح يورپديز من براعة ، وظرف ، ومادة طيبة ؛ وفقدت هذه المسلاة الوسطى (٤٠٠ - ٣٢٣) حياً للهجاء السيامى وتشجيعها له ، وقت أن كانت السياسة تتطلب « الصديق الصريح » ؛ وليس بعيد أن يكون هذا الهجاء قد حرّم أو أن النظارة قد شموا السياسة بعد أن أصبح حكام أثينة رجالاً من الطراز الثانى . وكان اعتزال الرجل اليونانى بوجه عام الحياة العامة إلى الحياة الخاصة في القرن الرابع سبباً في توجيه اهتمامه إلى شئون منزله وقلبه وإغفاله شئون الدولة . وظهرت في ذلك الوقت المسلاة الأخلاقية ، وأخذ الحب يسيطر على مناظرها ؛ ولم يكن يسيطر عليها دائماً عن طريق الفضيلة ، بل كانت العاهرات يظهرن على خشبة المسرح مع بائعات السمك ، والطهارة والفلاسفة الحيارى . - وإن كان زواج الممثل والكاتب ينقذ شرفهما في آخر التمثيل : خلت هذه المسرحيات من فحش أرسطوفان ومجونه اللذين كانا سبباً في خشونة المسرحيات وخلوها من الصقل الجميل ، ولكنها خلت أيضاً من حيويته وخصب خياله . ولدينا أسماء تسعة وثلاثين شاعراً من كتاب المسلاة الوسطى ، وإن لم يكن لدينا شيء من مسرحياتهم ، ولكننا نستطيع أن نحكم من القطع الباقية لدينا أنهم لم يكتبوا شيئاً جديراً بالخلود . وقد كتب ألكسيس الثوريائى (of Thuri) ٢٤٥ مسرحية ، وكتب أنتفانيز Antiphanes ٢٦٠ . لقد ذاع صيتهم في زمانهم فلما انقضى ذلك العهد أفل نجمهم .

أما الخطباء فكان هذا زمانهم . ذلك أن نهضة الصناعة والتجارة قد حولت عقول الناس إلى الحياة الواقعية والعملية ؛ وأخذت المدارس التى كانت قبل تعلم أشعار هومر تدرّب تلاميذها الآن على أساليب البلاغة . ولقد كان

إسيوس (Isaeus) ، وليقورغ ، وهيريديز ، ودمديز Demades ،
وديناركس Deinarchus ، وإسكينز ، ودمستين كلهم خطباء سياسيين ،
يتزعمون أحزاباً سياسية ، ويسيطرون ببلاغتهم على عقول الجماهير. وظهر
رجال في سراقوصة في الفترات التي ساد فيها الحكم الديمقراطي ، أما الدول
الديمقراطية فلم تكن تطيقهم ، وكانت لغة الخطباء الأثينيين تمتاز بالوضوح
والقوة ، والبعد عن المحسنات اللفظية وكانت تسوي بين الفينة والفينة إلى
مراقى الوطنية النبيلة ، وتسف إلى المهارات المنحطة والشتائم القنطرة التي
لا يسمع بها حتى في المنازعات الحديثة . وكان ما تتصف به الجمعية الأثينية
والمحاكم الشعبية من عدم التجانس في أعضائها سبباً في انحطاط فن الخطابة
اليونانية ، وحافظاً لها في الوقت عينه ، وانتقل هذا الأثر بنوعيه عن
طريق الخطابة إلى الأدب اليوناني بوجه عام ، فقد كان سرور المواطن الأثيني
من سماع الشتائم في خطب الخطباء لا يكاد يقل عن سروره من مشاهدة
مباراة لنيل جائزة ، وإذا عُرِف أن مبارزة لفظية ستقوم بين محاربي
بالألفاظ مثل إسكينز ، ودمستين أقبل الناس لسماعهما من القرى النائية
والدول الأجنبية ، وكان أكثر ما يستثيره الخطباء هو غريزة الكبرياء والهوى .
وقد عُرِف أفلاطون البلاغة ، وكان يكره الخطابة ويصفها بأنها السم القاتل
للمدقراطية ، عرفها بأنها فن حكم الناس باستثارة مشاعرهم وعواطفهم .
وحتى دمستين نفسه ، رغم حيويته وقوة أعصابه ، وسموه في كثير من
الأحيان إلى فقرات تفيض بالحماسة الوطنية ، ورغم هجومه الشديد على
الأشخاص هجوماً أخذ يضعف على مر الزمان ، ومهارته في تعاقب القصص
والجدل في خطبه تعاقباً يربح الأذن ويطرد السامة ، وما في لغته من انسجام
وتوازن . كان يعنى بهما كل العناية ، ورغم تدفقه في خطبه كالسيل
الجارف ، نقول إن دمستين نفسه رغم هذا كله يبدو لنا أقل قليلاً من
الخطيب العظيم . وكان يرى أن التمثيل هو سر العظمة الخطابية ، وبلغ
من إيمانه بهذا المبدأ أن كان يعيد خطبه مراراً في كثير من الأناة

ويتلوها على نفسه أمام مرآة ، واحترق لنفسه كهفأ كان يعيش فيه عدة أشهر ، لا يكاد يعلم به أحد. وكان في مثل هذه الفترات يخلق نصف وجهه ويبقى على النصف الآخر حتى لا تحدثه نفسه بالخروج من مأواه^(١) . وكان إذا وقف على منصة الخطابة اتجه بوجهه نحو تماثله ، ودار يمينا ويسرة ، ووضع يده على جبهته كأنه يفكر ، ورفع صوته في أغلب الأحيان إلى حد الصراخ^(٢) . ويقول فلوطرخس إن هذا كله « كان يسر العامة كل السرور ، أما المتعلمون أمثال دمتروس الفاليري (Demetrius of Phalerum) فكانوا يظنون هذا عملاً حقيراً ، مهيناً ، لا يتفق مع الرجولة الحقة » . وأنا لسر من حركات دمستين المسرحية ، ونعجب بتقليده لنفسه واعتزازه بها ، وتحيرنا استطراداته وتروّعنا بداءته . وليس في خطبه إلا القليل من الفكاهة والقيل من الفلسفة . ولولاحاسته الوطنية ، وما يبدو من إخلاص في دعوته الحارة الياثسة إلى الحرية ، لما كان له شأن كبير .

وبلغت الخطابة اليونانية أرقى درجاتها في عام ٣٣٠ . وكان تسفون Ctesiphon قبل ذلك العام بست سنين قد اقترح على المجلس مبدئياً أن يهدى دمستين تاجاً أو إكليلاً من الزهر اعترافاً منه بحسن سياسته ، وبما قدمه للدولة من منح مالية كثيرة . ووافق المجلس على هذا الاقتراح . وأراد إسكنيز أن يحول بين منافسه وبين هذا الشرف العظيم فاتهم تسفون بأنه عرض على المجلس اقتراحاً غير دستوري (وهو اتهام صحيح من الناحية الشكلية) وأجلت القضية المرة بعد المرة ، ثم عرضت أخيراً على هيئة القضاء المؤلفة من خمسمائة من المواطنين . وكانت هذه بطبيعة الحال قضية من أشهر القضايا شهدها كل من استطاع الحضور إلى أثينة مهما بعد موطنه ، ذلك بأن أعظم خطباء أثينة في ذلك الوقت كان في واقع الأمر يدافع فيها عن سمعته وعن حياته السياسية . ولم يثُغ إسكنيز في مهاجمة تسفون إلا قليلاً من الوقت ولكنه وجه هجومه إلى أخلاق دمستين

وسيرته ، ورد عليه دمستين في خطبة من نوع خطبته هي خطبته الشهيرة المعروفة باسم « في سبيل التاج » . ونزال نحس في كل سطر من أسطر الخطبتين بما كان يضطرم في صدر صاحبيهما من احتياج شديد ، وحقد في قلب عدوين التقياً وجهاً لوجه في ميدان القتال . وكان دمستين يعرف أن الهجوم أفضل من الدفاع ، فقال إن فليب قد اختار بوقاً له في أئينة أحط خطباتها وأشدهم فساداً ، ثم أخذ يرسم صورة لحياة إسكنيز يتجلى فيها الحقد بأوضح معانيه فقال :

لا بد لي أن أدلكم على حقيقة هذا الرجل الذي يطلق لسانه بالشتائم المقذعة . . . وإلى أى الآباء ينتسب . الفضيلة أيها الوغد الخائن ا . . . ما شأنك أنت أو أسرته بالفضيلة ؟ . . . وبأى حق تتحدث عن التربية والتعليم ؟ . . . هل أقص على الناس كيف كان أبوك عبداً يدير مدرسة أولية قرب هيكل ثيسوس ، وكيف كان مصفداً بالحديد في ساقه ، وكيف كان حول عنقه طوق من الخشب ، وكيف كانت أمك تقيم حفلات الزواج في مرافق بيت في وضوح النهار ؟ . . . لقد كنت تساعد أباك في كدحه في مدرسة صغيرة ، تطحن له الخبز ، وتنظف المقاعد بالإسفنج ، وتكنس الحجرة ، وتقوم بعمل الخادم . . . ثم سجلت اسمك في سجل أبرشيتك - وليس في مقدور أحد أن يعرف كيف استطعت أن تفعل ذلك ، ولكن ما علينا من هذا . - لقد اخترت لنفسك مهنة خليقة بأشرف الرجال المهذبين فكنت كاتباً وموصل رسائل لصغار الموظفين . وبعد أن ارتكبت جميع الجرائم التي تعير غيرك من الناس ، أعفيت من هذا العمل . . . والتحقت بجمدة المثليين الشهيرين سميلس Simylus وسقراط المشهورين باسم « المدمدين » . ومثلت أدواراً صغيرة تحت إشرافهم ، فكنت تلتقط التين والعنب والزيتون وتعيش على هذه القلائف خيراً مما تعيش من جميع الوقائع التي كنت منحوضها للنجاة من الموت . إن الحرب التي كانت قائمة بينك وبين النظارة لم تكن فيها هدنة أو وقف للقتال . . .

وازن إذن يا إسكنيز بين حياتك وحياتي . لقد كنت تعلم مبادئ القراءة وكنت أنا طالباً في المدرسة ؛ وكنت أنت راقصاً وكنت أنا رئيس الممثلين ... وكنت كاتباً عمومياً ، وكنت أنا خطيباً عاماً . وكنت ممثلاً من الدرجة الثالثة وكنت أنا ممن يشهدون التمثيل . وأخفقت أنت في تمثيل دورك وسخرت أنا منك بالصفير^(٣) .

وكانت هذه خطبة عنيفة ؛ ولم تكن نموذجاً للترتيب والأدب ولكنها كانت فصيحة اللفظ شديدة الانفعال إلى حد حملت القضاة على أن يبرئوا تسفون بأغلبية خمسة أصوات ضد صوت واحد . وفي العام التالي منحت الجمعية دمستين التاج المتنازع . ولما عجز إسكنيز عن أداء الغرامة التي تفرض حتماً على من يعجز عن إثبات جريمة يتهم بها أحد المواطنين ، فر إلى رودس ، حيث أخذ يكسب الكفاف من العيش بتعليم البلاغة . وتقول إحدى الروايات إن دمستين كان يرسل إليه المال ليخفف عنه آلام الفاقة .

الفصل الثاني

إسقراط

وكانت هذه المباراة في الخطابة من الموضوعات التي يمجدها ويعني بدراستها كل جيل من الأجيال اللاحقة .، ولكنها في واقع الأمر تمثل الدرك الأسفل من الانحطاط الذي هوت إليه السياسة الأثينية . ولسنا نرى شيئاً من النبيل أو الكرامة في هذا التناوب بالشتائم ، وهذا الكفاخ الحخير لنيل الثناء من الجماهير ، بين رجلين كان كلاهما يتلقى الذهب الأجنبي في الخفاء . أما إسقراط فكان أكثر منهما جاذبية إلى حد ما وينتقل فيه إلى القرن الرابع بعض عظمة القرن الخامس . ولد إسقراط في عام ٤٣٦ ، وعاش حتى عام ٣٣٨ ، ومات حين ماتت الحرية اليونانية . وكان أبوه قد جمع ثروة كبيرة بصنع آلات الناي الموسيقية ، وأتاح لابنه جميع الفرص التعليمية ، ولم يعخل عليه بإرساله للدراسة البلاغة على غورغياس في تساليا . وقضت حرب البلوپونيز وخطوة ألقبيادس على صناعة الناي وزهبتا بثروة الأسرة ، فاضطر إسقراط إلى كسب قوته بعرق قلمه . فبدأ بكتابة الخطب لغيره ، وفكر في أن يكون هو خطيباً ، ولكنه كان خجولاً ، ضعيف الصوت ، شديد البغض لسفالة الحياة السياسية ، وكان يمتد أشد المقت الزعماء المهرجين الذين سيطروا على الجمعية ، وانزوى وقتاً ما في حياة التعليم الهادئة .

فافتتح في عام ٣٩١ أعظم مدارس البلاغة نجاحاً في أثينة ، وهرع الطلاب إليها من جميع أنحاء العالم اليوناني ، ولعل اختلاف أصولهم ونظراتهم إلى الحياة قد ساعد على تكوين فلسفته الهلينية الجامعة . وكان يظن أن من عداه من المدرسين يسرون كلهم في غير الطريق السوي . وقد ندد في نشرة له ضد السوفسطائيين بالذين يرفعون كل أخرق مأفون إلى فيلسوف نظير دربهات

معدودة ، والذين يرجون ، كما يرجو أفلاطون ، أن يعدوا الناس لتولي الحكم بتدريبهم في علوم الطبيعة وما وراء الطبيعة : أما هو فكان يقر بأنه لا يستطيع أن يحصل من الطالب على نتائج طيبة إلا إذا كان هذا الطالب ذا موهبة طبيعية . ولم يكن في وسعه أن يدرس العلوم الطبيعية أو ما وراء الطبيعة لأنها ، كما يقول ، بحوث لا يرجى منها خير ، في أمور غامضة لا يمكن الكشف عن خفاياها . ولكنه رغم هذا كان يطلق اسم الفلسفة على ما يعلمه في مدرسته . وكان منهاج الدراسة يدور حول فنّي الكتابة والكلام ، ولكنه كان يدرسهما من حيث صلتهما بالأدب والسياسة^(٥) ، وكان يدرس للطلاب منهجا ثقافياً ، على حد تعبير هذه الأيام ، يخالف المنهج الرياضي الذي كان يدرس في مجمع أفلاطون العلمي . وكان الهدف الذي يريد الوصول إليه هو فن الخطابة ، وقد كان هذا الفن في ذلك الوقت وسيلة التقدم في الحياة العامة ، لأن الجدل هو الذي كان وقتئذ يحكم الدولة الأثينية . ومن أجل ذلك كان إسقراط يعلم تلاميذه طريقة استعمال الألفاظ ، كيف يضعونها في أوضح ترتيب ، وفي تتابع منسجم ولكنه غير موزون ، وفي عبارات مصقولة ولكنها غير مزخرفة ، وكيف ينتقل بالأصوات والأفكار انتقالاً هادئاً سلساً^(٦) ، وكيف تكون الجمل متزنة والوقفات كثيرة . وكان من رأيه أن هذا النثر يسر الأذن المهذبة بقدر ما يسرها الشعر . وتخرج في هذه المدرسة كثيرون من الزعماء في عصر دمستين : تموثيوس القائد ، وإفورس وثيويومس المؤرخان ، وإسيوس ، وليقورخ ، وهيريدنز ، وإسكينز الخطباء ، وإسيوس خليفة أفلاطون ، وأرسطاطاليس نفسه في رأي بعضهم^(٦) .

(٥) مثال ذلك أن إسقراط - وحذا حذوه في ذلك معظم من جاء بعده من كتابه اليونان - كان يرى أن من الخطأ أن تختتم كلمة بأحد الحروف المتحركة ، ثم تبدأ الكلمة التي تليها بحرف متحرك أيضاً .

ولم يكن إسقراط يقنع بتكوين عطاء الرجال ، بل كان يرغب في أن تكون له يد في تصريف شئون عصره . وإذ كان عاجزاً عن أن يكون خطيباً أو سياسياً فقد أخذ يؤلف النشرات . فكان يوجه خطباً طويلة لجمهور الأثينيين ، ولزعماء أمثال فليب ، أو لليونان المحتشدين في ساحات الأداب اليونانية الجامعة ؛ ولم يكن يلقي هذه الخطب ، بل كان ينشرها ، فابتدع بذلك على غير علم منه المقالة بوصفها فناً من فنون الأدب . وقد بقيت لنا تسع وعشرون من خطبه تعد من أكثر ما بقي من الأدب القديم إمتاعاً . وكانت خطبته الأولى العظيمة المعرفة باسم الجمعية العامة أو الهانيچركس Panegyricus^(*) مفتاح تفكيره كله ، والهدف الذي كان يبتغيه معلمه القديم غورغياس ، وهو دعوة بلاد اليونان إلى نسيان سيادتها الصغيرة والاندماج في دولة واحدة . وكان إسقراط أثينا فخوراً بوطنه ... « لقد فاقت مدينتنا سائر بلاد العالم في أفكارها وخطبها حتى أصبح تلاميذها معلمى الدنيا بأجمعها » ، لكنه كان يفخر يونانيته أكثر من فخره بأثينيته ؛ ولم يكن معنى الهلينستية عنده^(***) ، كما لم يكن معناها عند رجال العصر الهلينستى ، هو الانتساب إلى جنس بعينه ، بل كان معناها الاشتراك في ثقافة بعينها ؛ وكان يشعر بأن هذه الثقافة هي أرق ثقافة ابتدعها الإنسان في أى بلد من بلاد العالم^(٧) ؛ وكان « البرابرة » يحيطون بهذه الثقافة من جميع الجهات - في إيطاليا ، وصقلية ، وإفريقية ، وآسية ، والبلاد المعروفة لنا الآن باسم بلاد البلقان - وكان يحزنه ويقض مضجعه أن يرى هؤلاء البرابرة يزيدون كل يوم قوة ، وأن يرى بلاد الفرس تقوى سيطرتها على أيونية ، على حين أن الدولة اليونانية كانت تقضى على نفسها بحروبها الداخلية .

(٥) سميت كذلك لأنها كانت موجهة إلى الهانيچريس أو الجمعية العامة (بان - أجورا

Παναγορα) اليونانية في الدورة الأولمبية الثالثة .

(٥٥) الهلينستية هي الاصطلاح والصيغة اليونانية في غير بلاد اليونان الأصلية . (المترجم)

« ما أكثر الشرور التي تلازم الطبيعة البشرية ؛ ولكننا نحن قد اخترعنا من أكثر الشرور التي تفرضها علينا الطبيعة ، بإثارة الحروب والانقسامات الداخلية . . . ولم يتم أحد قط بمقارنة هذه الشرور ، والناس لا يستحيون أن يبيكوا من الكوارث التي اصطنعها الشعراء ، على حين أنهم ينظرون بعين الرضا إلى ما تؤدي إليه الحرب القائمة بيننا من آلام حقه ، وكوارث لا حصر لها . وهم لا يشفقون منها ، بل لهم لينتهجون مما يصيب غيرهم من الأحزان أكثر من إبتهاجهم بما ينالون من النعم » (٨) .

وكان يقول إنه إذا كان لا بد لليونان أن يقاتلوا فلم لا يقاتلون عدوا حقيقيا ؟ لم لا يطردون الفرس إلى هضابهم ؟ ويتنبأ بأن شرذمة قليلة من اليونان تستطيع أن تهزم جيشا كبيرا من الفرس (٩) ، وقد توحدت حرب مقلسة من هذا النوع بلاد اليونان في آخر الأمر ، ولم يكن أمام اليونان إلا واحدة من اثنتين فلأما وحدة اليونان وإما انتصار البرابرة ولا ثالثه لها .

واعزم إسقراط أن يحقق نظريته هذه عمليا ، فأخذ يطوف ببحر إيجه بعد عامين من نشر هذه الدعوة (٣٧٨) وبصحبته تلميذه السابق تموثيوس ، وساعد على وضع شروط الحلف الأثيني الثاني . وكان ما تعاقب على هذا الأمل الحديد في الوحدة من قوة تارة وبخيبة تارة أخرى من أشد الآلام الكثيرة التي منى بها في حياته الطويلة . فأخذ يقرع أئينة في نشرته القوية البحرية « في السلم » لأنها أفسدت الحلف مرة أخرى فحولته إلى إمبراطورية ، وأهاب بها أن توقع صلحا يؤمن كل دولة يونانية من أن تعتدى عليها أئينة مرة أخرى : « إن ما تسميه إمبراطورية لهوفى الحقيقة كارثة ، لأنها بطبيعة تكوينها تفسد كل من له صلة بها (١٠) » . ومن أقواله أن الاستعمار قد قضى على الديمقراطية لأنه علم الأثينيين أن يعيشوا على الجزية الأجنبية ؛ فلما نجسروا هذه الجزية أرادوا أن يعيشوا على

الإعانات التي تقدمها لهم الدولة ، ورفعوا إلى أعلى المناصب من وعدوهم
بأكبر معونة

« إنكم حين تتناقشون في أعمال الدولة ترتابون في أصحاب الذكاء الفائق
ولا تحبونهم ، وترفعون بدلا منهم أخطر من يتقدم إليكم من الخطباء . . .
إنكم تفضلون السكرارى عن لا يتعاطون الخمر ، ومن لا عقل لهم عن الحكماء ،
ومن يبددون أموال الدولة عنم يؤدون الخدمات العامة وينفقون عليها من
مالهم الخاص (١١) » .

وكان أخف من هذا وطأة على الديمقراطية في خطابه الثاني المسمى
الأوروبي مجتس . ويقول في إحدى فقراته التي تصدق على كل زمان : « إنا
لنجتمع في حوانيتنا نندد بالنظام الحاضر ، ولكننا نرى أن الديمقراطيات
الفاصلة النظام نفسها تسبب من الكوارث أقل مما تسببه الأجركية (١٢) » .
ويتساءل ، ألم تكن سيادة اسبارطة على بلاد اليونان أسوأ من سيادة أثينة ؟
« ألم نصبح نحن جميعاً بفضل جنون « الثلاثين » أشد تحمساً للديمقراطية من
من الذين احتلوا فيلبي (١٥) ؟ » (١٢) ولكن أثينة قد قضت على نفسها بتجاوز
الحد في الأخذ بمبدأ الحرية والمساواة ، و« بتدريب المواطنين تدريباً يجعلهم
يعدون الوقاحة ديمقراطية ، والخروج على القانون حرية ، والسفاهة في القول
مساواة ، وقدرتهم على أن يفعلوا كل ما يشاءون سعادة » (١٤) . « ليس
الناس كلهم أكفاء ، ويجب ألا يكونوا كلهم أكفاء ، في تولى المناصب
العامة » . وكان يشعر أن نظام القرعة قد نزل بمستوى الحكم الأثيني إلى
الدرك الأسفل ، وأدى إلى أوحى العواقب . ويقول إن خيراً من « حكم
الغوغاء » هذا « حكم الملاك » الذي كان يدعو إليه صولون وكليستينز لأن
الجهل المحب للناس ، والفصاحة التي تبتاع بالمال ، تقل أمامهما فرص

(٥) ثرازيبولس ، وأنيثوس ، وغيرهما من أعادوا الديمقراطية في عام ٤٠٤ .

الارتقاء إلى مراتب الزعامة ؛ ولأن القادرين من الناس يرقون رقياً طبيعياً إلى أعلى المناصب ، فإذا تلقفهم الأريوبجس بعد فترة توليهم مناصبهم ، أصبحوا من تلقاء أنفسهم عقل الدولة الناضج .

ولما عقدت أئينة الصلح مع فليب في عام ٣٤٦ ، وكان إسقراط وقتئذ في سن التسعين ، وجه إلى الملك المقدوني خطاباً مفتوحاً . وقد هداه تفكيره إن أن فليب سيفرض سيادته على بلاد اليونان فتوسل إليه ألا يستخدم سلطانه كما يستخدم المستبدون سلطانهم ، بل يستعين به على جمع شمل اليونان المستقلين وتوجيههم إلى حرب يحررون بها بلادهم من « صلح الملك » ، وتحرير أيونيا من حكم الفرس ، وأخذ حزب الحرب يطعن في هذا الخطاب ويصفه بأنه استسلام للطغيان ، وظل إسقراط سبع سنين ممسكاً بقلمه يرد به على هذه التهمة . ثم كتب خطبة أخرى في عام ٣٣٩ موجهة الخطاب إلى اليونان اللذين اجتمعوا لمشاهدة الألعاب الأثينية الجامعة . وكانت الخطبة الأثينية الجامعة (اليان أثنيكس I'onathenaicus) تكرر أضعافاً مضاعفةً مسيئاً لخطبة الجمعية العامة . فنحن نحس أسلوبها يرتجف في يد الشيخ الطاعن في السن ، ولكنها مع ذلك عمل عظيم من رجل لا تنقص منه عن قرن كامل إلا ثلاث سنين . وفي عام ٣٣٨ دارت معركة قيرونية وهزمت فيها أئينة ، ولكن ما كان يحلم به إسقراط من وحدة بلاد اليونان أو شك أن يتحقق . وتقول إحدى الروايات اليونانية التي ذاعت بعدئذ إنه لما بلغه الخبر لم يفكر في فليب أو في الوحدة ، بل كان تفكيره كله في مدينته التي ذلت ، وفي أيام مجدها التي ولت ؛ وإنه بعد أن بلغ ثمانية وتسعين عاماً وبلغ من العمر كفايته أمات نفسه جوعاً (١٥) . ولسنا نعرف هل هذه القصة صادقة أو كاذبة ، ولكن أرسطاطاليس يحددنا بأن إسقراط مات قبل أن تمضي على قيرونية خمسة أيام .

الفصل الثالث

أكسانوفون

إذا كان أثر « الشيخ الفصيح » في ساسة عصره قابلاً للشك ، فإن أثره في الأدب كان أثراً عاجلاً وخالداً(*) . وكان المؤرخون أول من أحسوا به ، فلقد قلده أكسانوفون وغيره من المؤرخين في الصورة التي رسمها لإفجروس Evagoras (***) ؛ وأصبحت السير من بعده فناً شائعاً من فنون الأدب اليوناني ، بلغت غايتها في روائع فلوطرخس الثرثرة . وقد عهد إسقراط إلى تلميذ من تلاميذه يدعى إفورس Ephorus أن يضع تاريخاً عاماً لبلاد اليونان - لا يؤرخ حوادث دولة واحدة من دوله بل يؤرخ لبلاد اليونان بوجه عام . وقام إفورس بما عهد إليه خير قيام وأجاده لإجادة حملت معاصره على أن يضعوا كتابه « التاريخ العام » في مستوى كتاب هيرودوت . وخص إسقراط تلميذاً آخر هو ثيوپمبس الطشيزي بتاريخ الحوادث القريبة العهد ، فصدم ثيوپمبس بالأمر ووصف هذه الحوادث في كتابيه الهلينيكا والفلييكا وهما مؤلفان رائعان يمتازان بحيويتهم عباراتهما اللاذعة ، وحازا إعجاب معاصريه . وكتب دسياركس Dicaearchus المساني (of Messana) حوالي عام ٣٤٠ تاريخاً للحضارة اليونانية عنوانه حياة اليونان (Bios Hellados) ألا ما أقدم هذه المغامرة التي أقدمنا نحن عليها ، وما أعظم الشبه بين ذلك العمل القديم وعملنا هذا الذي يتفق معه حتى في الاسم . ولم يخلد من مؤرخي القرن الرابع أحد غير أكسانوفون . ويضفه ديوجانس ليرتيوس في شبابه بقوله :

(*) لقد بنى شيشرون وملتن ، وماسيون ، وجرمي تيلر ، وإدمند بيرك أسلوبهم الثري على الحمل المئزفة الطويلة التي هي من خصائص أسلوب إسقراط .
(**) الطاغية المستير الذي أدخل الثقافة اليونانية في قبرص ٤١٠ - ٣٨٧ .

كان أكسانوفون رجلاً شديداً التواضع ، وسياً كأعظم ما يتصور الإنسان الوسامة ؛ ويقال إن سقراط التقى به في حارة ضيقة فسد عليه مدخلها بعصاه ، ومنعه أن يخرج منها ، وأخذ يسأله عن الأماكن التي تباع فيها كثير من ضرورات الحياة . فلما أجابه أكسانوفون عن أسئلته سأله من جديد أين يصنع الرجال الطيبون الأفاضل ؟ ولما عجز أكسانوفون عن الإجابة قال له سقراط : « اتبعني إذن وتعلم مني » وأصبح أكسانوفون من ذلك الوقت أحد أتباع سقراط (١٧) .

وكان أشد تلاميذه ميلاً إلى الفلسفة العملية ، وكان يعجبه في سقراط قوة حيلته الجلذابة ويرى أنه قديس فيلسوف . ولكنه كان يعجب بالعمل كما يعجب بالتفكير ، ولذلك صار جندياً مغامراً على حين أن غيره من رجال العلم كانوا كما يقول فيهم أرسطوفان مستهزئاً « يقيسون الهواء » (١٨)

وخدم وهو في سن الثلاثين أو ما يقرب منها في جيش قورش الأصغر وحارب في كونكسا وقاد العشرة الآلاف إلى النجاة . وفي بزنطية انضم إلى الإسبارطيين في حربهم ضد الفرس وأسر ميدياً غنياً ، وقبل مبلغاً كبيراً من المال فدية له ، وعاش من هذا المال بقية أيام حياته ، وأصبح بعد تلك الحرب صديقاً لأجسلوس ملك إسبارطة ، وأعجب به ، وترجم له ترجمة تدل على هذا الإعجاب ، وعاد إلى بلاد اليونان مع أجسلوس بعد أن أعلنت أثينة الحرب على إسبارطة ، وآثر الولاء له على الولاء لمدينته ؛ فلم يكن من أثينة إلا أن أعلنت نفيه وصاحرت أملاكه ؛ وحارب في صفوف اللسديمونيين في قورونية وكوفئ على هذا بضيعة في سلس Scilus من أعمال إيليس Elis ، وكانت وقتئذ تحت سيطرة إسبارطة ، وقضى فيها عشرين عاماً يعيش عيشة سادات الريف ، يزرع ويصطاد ، ويكتب ، ويرب أولاده تربية صارمة على الطريقة الإسبارطية (١٩) :

ونحن مدينون بنفيه إلى كتبه المختلفة التي رفعته إلى المقام الأول بين المؤلفين في زمانه . وكان يكتب ، إذا حلت له الكتابة ، في تدليل الكلاب ، وترويض

الجيل ، وتدريب الزوجة ، وتربية الأمراء ، والحرب إلى جانب أجسلوس ، أو جباية المال لأثينة : وقد قص في الآباسبس بأسلوبه العذب الساتع أسلوب الرجل الذى شاهد الأعمال التى يصفها أو اشترك بنفسه فيها ، قص فى هذا الكتاب قصة مسير العشرة الآلاف إلى البحر ، وهى القصة المثيرة التى لا سند لها غيره . وفى كتابه الهلينيكا واصل قصة بلاد اليونان من حيث انتهى توكيديدس ، إلى واقعة متينيا التى قتل فيها ولده جريس وهو يحارب ببسالة بعد أن قتل بيده أبامينداس . والكتاب فى حد ذاته مرد مل للحوادث يدل على أن كاتبه يفهم التاريخ على أنه سلسلة لانهاية لها من الوقائع الحربية ، وسرد الانتصارات والهزائم ، ومحاولة غير مجدية لتعليلها منطقياً . والأسلوب قوى ، والشخصيات واضحة ، لكن الحوادث قد أحسن اختيارها لكى تثبت تفوق الأساليب الاسبارطة . وفى كتاب أكسانون تعود الحرفات التى كانت قد اختفت من التاريخ فى كتاب توكيديدز ، وهو يستند إلى القوى غير الطبيعية ليفسر بها سير الحوادث . وبمثل السذاجة و هذا النفاق نحيل المورايليا سقراط إنسانا كاملا إلى حد لا يصدق عقل سليم ، فهو مستمسك بالدين القويم ، والأخلاق الفاضلة ، والحب العذرى ؛ وقصارى القول أنه مكمل فى كل شىء إذا استثنينا احتقاره للديمقراطية ، ذلك الاحتقار الذى حببه إلى قلب أكسانوفون الطريد . وكتابه « المائدة » أقل من هذا الكتاب الأخير جدارة بالثقة . وهو ينقل حديثا يزعم أنه دار حين كان لا يزال أكسانوفون طفلا .

أما فى الإكونوميكس Oeconomicus فإن أكسانوفون يتحدث فى الميدان الذى يحق له أن يتحدث فيه ، ويكشف عن نزعه التحفظية بصراحة تسحر عقولنا على الرغم منا . لقد كان أكسانوفون خبيراً فى الزراعة ، وشاهد ذلك أنه لما طلب إلى سقراط أن يعلم فنونها أقر فى كثير من التواضع بجهله ، ولكنه ذكر نصيحة المالك الثرى إسكوماكش Ischomachus والمثل الذى ضربه للناس بنفسه . ويجهر إسكوماكس هذا باحتقار أكسانوفون لكل عمل (٣٠ - ح ٢ - مجلد ٢)

هذا الزراعة والحرب ، ولا يكتفى بشرح أسرار النجاح في الأعمال الزراعية ، بل يشرح معها فن إدارة الرجل أملاكه وأملاك زوجته . ويحدثنا إسكوماكس في أسلوب لا يكاد يقل رشاقة عن أسلوب أفلاطون كيف علم عروسه أن تعنى بمنزلها ، وتضع كل شيء في مكانه ، وتسوس خدمها بالرفق من غير أن تحتلط بهم وتفقد منزلتها في أعينهم ، وتشتهر بين الناس ، لا بجعلها المصطنع ؛ بل بإخلاصها في أداء واجباتها بوصف كونها زوجة ، وأما ، وصديقة . والزواج في رأى إسكوماكس - أكسانوفون رابطة اقتصادية وجسمية معاً ، وهو يضمحل حين يقوم الشريك الصامت بالعمل كله . ولعل حديثه عن استعداد الزوجة الشابة لقبول هذا كله لا يدعو أن يكون أمنية يتمناها ذلك القائد الذى لم ينل نصراً ما في ميدان البيت ؛ ولكننا لا نمنعنا مانع من أن نصدق كل شيء في القصة إلا أن إسكوماكس قد استطاع في لحظة وجيزة أن يقنع زوجته بترك المساحيق والأصباغ الحمراء (٢٠) .

وبعد أن شرح أكسانوفون فن الزواج أخذ يصف في القيروبيديا (أى تربية قورش) مثله العليا في التعليم والحكم ، كأنه يرد بها على آراء أفلاطون في الجمهورية . وكان أكسانوفون بارعاً في تكيف السر الخرافية لخدمة الفلسفة ، فأخذ يروى قصة خيالية عن تعليم قورش الأكبر ، وحياته ، ونظامه الإداري ؛ وهو يجعل القصة شخصية مسرحية ، ويبعث فيها الحياة بحواره ، ويجعلها بما يدخله فيها من أقدم قصص الحب في الآداب التي كانت موجودة في زمانه . ويكاد يغفل في كتابه التربية الثقافية ، ويركز اهتمامه في كيفية جعل الغلام صحيح الجسم ، قادراً ، شريفاً ؛ فالصبي يتعلم الألعاب الرياضية الخلقية بالرجال ، وفنون الحرب ، وعادة الصمت والطاعة ، ويتعلم أخيراً كيف يسيطر على مرووسيه سيطرة قوية قائمة على الإقناع . ويرى أكسانوفون أن خير أنواع الحكم هو الحكم الملكى المستنير الذى تؤيده وتحمده منه أرسقراطية متخصصة في الأعمال الزراعية والشئون الحربية . وهو يعجب بقوانين الفرس التى تقضى بمكافأة المحسن وعقاب المسيء (٢١) ،

ويقول لليونان ذوى النزعة الفردية إن من المستطاع ضم كثير من المدن والدول في إمبراطورية واحدة تستمتع بالنظام والسلم في الداخل ، ويضرب لهم بلاد الفرس مثلاً . ولقد بدأ ألكسانوفون كما بدأ فليب وهو يحلم بالفتح ويسطة الملك ، ويبتهى كما انتهى الإسكندر أسير حب الشعوب التي فكر في التغلب عليها .

وهو قصاص بارع ، ولكنه ميسوف وسط . وهو هاو في كل شيء عدا الحرب ، يبحث في مائة موضوع وموضوع ، ولكنه يبحث فيها على الدوام بعقلية العسكري . وهو يبالغ في مزايا النظام ، ولا يجد كلمة يقولها عن الحرية ، وفي مقدورنا أن نستدل من هذا على مقدار ما بلغه الاضطراب في أثينة . وإذا كان القدامى قد وضعوه في مرتبة هيرودوت وتوكيديلز ، لذلك راجع من غير شك إلى أسلوبه الذي ، يمتاز بصفاته الأتكي الساحر الطلي ، ونثره السلس المتدفق المنسجم الذي وصفه شيشرون بأنه « أحلى من الشهد (٣٣) » ، وإلى اللوحات الشخصية التي تكسب الموضوع حياة وإنسانية ، وإلى لغته ذات البساطة واللقافة التي تمكن القارئ أن يرى من خلال هذا الوسط الصافي الرأي أو الموضوع الذي يعالجه الكاتب . وإن الصلة التي بين ألكسانوفون وأفلاطون من جهة وتوكيديدس وسقراط من جهة أخرى لشبهة كل الشبه بالصلة التي بين أبليرز وپركستيلز من ناحية وبلجنوتس من الناحية الأخرى... فقد بلغت أناقة الأسلوب والمهارة الفنية على أيديهما أعلى منزاتهما بعد عصر من الابتكار في التفكير وقوة الأسلوب .

الفصل الرابع

أبليز

إن الذي بلغ فيه القرن الرابع إلى الذروة لم يكن الأدب بل الفلسفة والفن ؛ ذلك أن الفرد قد تحرر فيه ؛ كما تحرر في السياسة ، من المعبود ومن الدولة ، ومن التقاليد ومن المدرسة . فلما أن حل الولاة الفردي غل الإخلاص الوطني ، نزل فن العمارة إلى الدرجة الوسطى ، وازداد طابعه الديني شيئاً فشيئاً ، وازدهر شأن تمثيليات الموسيقى والرقص وحل محلها تمثيل يقوم به أفراد محترفون ، وظل التصوير والنحت يزينا المباني العامة بصور طرز من الآلهة أو النبلاء ، ولكنهما في الوقت ذاته دخلا في خدمة الأفراد الأحياء وشرعا يصورانهم حتى أصبح هذا طابع العصر الذي أعقب ذلك القرن . وإذا كانت بعض المدن قد ظلت تناصر الفن مناصرة قومية واسعة النطاق ، فما ذلك إلا لأنها كانت كمدائن نيدس ، وهليكرنسس ، وإفسوس لم تفتحها الحرب اجتياحاً تاماً ؛ أو كسراقوصة قد وجدت في مواردها الطبيعية ونظام حكمها وسائل الانتعاش العاجل .

وأما فن العمارة في أرض اليونان الأصلية فقد كان في ذلك الوقت واقفاً يترقب لا يتقدم ولا يتأخر وإن كانت قد شيدت فيه بعض العماثر . من ذلك أن ليقورغ جدد في عام ٣٣٨ بناء ملهى ديونيشيوس ، وساحة الألعاب ، واللوقيون، وشاد فيلون بإشرافه دار صنعة كبيرة رائعة في بيرية . ولما أن ازداد ميل الناس إلى الرقة والدقة في البناء فقد الطراز الدوري جدته وانصرف الناس عنه ، لأن بساطته الصارمة لم تعد تستجيب لها النفس ، وارتفع شأن الطراز الأيوني وازداد انتشاراً ، وكان هذا في الفن يقابل طرف بركستليز في النحت وسحر أفلاطون في الأدب . وأنشئ على الطراز الكورنثي « برج الرياح »

والنصب التذكاري للتمثيل في لسكريز Lysicartes : وشاد أسكوياس Scopas في تيجيا Tegea الأركادية هيكلًا لأثينا جميع فيه بين الطرز الثلاثة ، فكانت فيه مجموعة من العمس الدورية ، وأخرى أيونية ، وثالثة كورنثية (٢٣) ، ثم جملة بالتماثيل نحتها بيده الصناع العضلية .

وكان التمثال الثالث المقام لأرتيمس في إفسوس أكبر من هذا وأعظم شهرة ؛ وكان التمثال الثاني قد احترق يوم ولد الإسكندر في عام ٣٥٦ ، وتلك مصادفة يقول عنها فلوطرخس بظرفه المعهود إلى هجسياس المغنزي Hegesias of Magnesia « اتخذها سبباً لغرور بلغ من البرودة حدًا يكفي لإخاد النار (٢٤) » . وسرعان ما بدئ بإقامة البناء الثاني ، ولم ينته ذلك القرن حتى كان البناء قد تم . وعرض الإسكندر أن يتحمل جميع نفقات المبنى كلها إذا نقش اسمه على هذا الصرح ، وقيل إنه أقيم من ماله ؛ ولكن يونان إفسوس أبت عليهم عزة أنفسهم أن يقبلوا هذا العرض ، وكانت حججهم في رفضه حجة لا تستطيع مقاومتها (أو لعلهم أرادوا بها هجو الإسكندر والسخرية منه) وهي أنه « لا يليق أن ينشئ إله هيكلًا لإله آخر (٢٥) » . غير أن الذي حدث رغم هذا أن مهندس الإسكندر المقرب إليه هو الذي رسم مبنى الهيكل وجعله أكبر هياكل هلاس على الإطلاق . وقام عدد من المثالين بعمل النقوش القليلة البروز على ستة وثلاثين عموداً ، وكان من بينهم اسكوياس الذي نرى له نقوشاً في كل مكان في بلاد اليونان . وفي المتحف البريطاني مصفة من أحد هذه العمس ، نحتت عليها تماثيل ، وكأنها قد قاومت عوادي الزمان لكي تثبت بما عليها من تصوير للثياب دون غيره أن فن النحت اليوناني لا يزال قريباً جداً من ذروته . وليست رؤوس التماثيل جامدة نحتت على غرار طرز حداثتها الثقيل . والأجيال الطوال ، ولكنها تمثل وجوهاً لأفراد تنبض بالشعور والمميزات الخلقية -- وتبشر بالواقعية الهلنستية .

وفي الأحجام الصغيرة امتاز القرن الرابع بالتماثيل الصغيرة المصنوعة من

الأجر المحروق . وقد أضحى اسم تنجارا البوثوية *Boeotiam Tangara* مرادفاً للتماثيل الصغيرة المصنوعة من الصلصال المحروق غير المزجج المصبوب على غرار طرز عامة ، ولكنه يُشكل ويلون باليد فتخرج منه آلاف من الصور الفردية التي تنبعث فيها ألوان الحياة العامة على اختلاف أشكالها . وكان يلجأ إلى التصوير في هذا القرن كما كان . يلجأ إليه في القرون السابقة له لمساعدة غيره من الفنون . غير أنه قد أصبحت له وقتئذ كرامة ومنزلة مستقلة ، وأضحى أساتذته يستدعون لأداء أعمال فنية في جميع أنحاء العالم اليوناني . وكان *پمفيلس الأمفيلوسى Panphilus Amphipolis* معلم أبلينز يرفض أى تلميذ لا يبقى عنده اثنتى عشرة سنة كاملة ، وكان يطلب ما يعادل ستة آلاف ريال أمريكى لتدريس المنهج . وقد أدى *ناسون Mnason* طاغية لإلاتيه اللكرية *Locrian Elatea* عشر مينات أجزاً عن كل صورة من المائة الصورة في منظر واقعة حرية رسمه *أرستيديز الطبيى* ، وبذلك حصل هذا الرسام على مائة ألف ريال أمريكى أجزاً لرسم منظر واحد وهذا الطاغية المتحمس نفسه وهب *اسكلپودورس* ما يعادل ٣٦٠٠٠٠ ريال أمريكى أجزاً للوحة صور عليها الاثنا عشر الكبار من الآلهة الأولمبية . ودفع ما يعادل ١٢٠٠٠٠ ريال أمريكى ثمناً لنسخة ثانية من الصور الملونة التي رسمها *پوسياس الشيشونى* لجلسيرا عشيقة *مناندر* (٣٦) . ويقول *پلنى* إن صورة من عمل أبلينز كانت تباع بثمن يعادل ما في خزائن مدائن بأجمعها (٣٧)

ويقول هذا الهاوى المتحمس نفسه أن « أبلينز القوسى فاق كل من عداه من المصورين السابقين واللاحقين ، فإنه بمفرده أفاد فن التصوير كما لم يفده جميع المصورين مجتمعين (٢٨) » . وما من شك في أن أبلينز كان أعظم أهل فنه وأهل زمانه ، ولولا ذلك لما استطاع أن يسرف هذا الإسراف النادر في مدح غيره من المصورين ؛ من ذلك أنه لما علم أن *پروتجينز* أكبر منافسيه يعيش في فقر مدقع ، سافر إلى رودس لزيارته . ولم يكن *پروتجينز* في مرسمه حين أقبل أبلينز

لأن أحداً لم يفتنه بهذه الزيارة . وقابلت الزائر خادم عجوز وسألته عن اسمه لتبلغه إلى سيدها بعد أن يعود . فما كان جواب أبليز إلا أن أخذ فرشاة ورسم على لوحة إطاراً غاية في الدقة بجمرة واحدة . ولما عاد پروتجنيز وأخبرته الخادم العجوز أنها تأسف لأنها لا تستطيع أن تحببه باسم زائره ، ثم أطلع على الأطار وشاهد دفته . ، صاح قائلاً : « إن أحداً لا يستطيع رسم هذا الإطار إلا أبليز » . ثم رسم في داخله إطاراً أدق منه وأمر المرأة أن تطلع عليه الزائر الغريب إذا عاد ، وعاد أبليز فعلاً ودعش من حلق پروتجنيز الغائب ، ولكنه رسم بين الإطارين إطاراً ثالثاً يبلغ من الرقة والرشاقة حداً لم يسع پروتجنيز معه حين رآه إلا أن يعترف أن منافسه قد غلبه ، ثم أسرع إلى الميناء ليستقي أبليز ويرحب به . وانتقلت هذه الآلة الفنية من جبل إلى جبل حتى اشتراها يوليوس قيصر ، ثم احترقت في النار التي دمرت قصره القائم على تلي البلاطين . وتاقت نفس أبليز إلى أن يوقظ في العالم اليوناني الاهتمام پروتجنيز وتقدير قيمته فسأله أن يخبره كم من المال يطلب ثمناً لبعض رسومه ، ولما طلب پروتجنيز مبلغاً متواضعاً عرض عليه أبليز بدلاً منه خمسين وزنة (٣٠٠٠٠٠ ريال أمريكي) ، ثم أذاع أنه سيبيع هذه الرسوم زاعماً أنها من صنع يده . وكان هذا الإعلان سبباً في أن أهل رودس قدروا عمل فنانهم خيراً من ذي قبل فدفعوا إلى پروتجنيز أكثر مما عرضه عليه أبليز واحتفظوا بالصور بين كنوز مدينتهم^(٢٩).

وكان أبليز في هذه الأثناء قد نال إعجاب العالم اليوناني كله بصورة أفرديتي أنديوميني Aphrodite Anadyomene أى أفروديتي الخارجة من البحر . وأرسل الإسكندر في طلبه وعرض عليه أن يرسمه في مواقف كثيرة . ولم تعجب الشاب الفاتح صورة لجواده بسفالس Bucephalies في أحد هذه الرسوم ، وأمر بأن يقرب الجواد من الصورة ليوازن بينه وبينها ، فلما نظر الجواد إلى صورته سهل ، فقال أبليز للإسكندر « يلوح أن جواد

جلالتك يعرف عن التصوير أكثر مما تعرف،^(٣٠) . وكان الملك في مرة أخرى يتحدث عن الفن في رسم أبلينز ، فرجاه الفنان أن ينتقل إلى موضوع آخر حتى لا يسخر منه الغلمان الذين يسحقون الألوان ، ولم يغضب الإسكندر من هذا القول . ولما أن استخدم الفنان في تصوير حظيته المحبوبة ، وشغف بها أبلينز أهداها إليه الملك^(٣١) . وكان أبلينز يغطي صوره بعد الفراع منها بطبقة رقيقة من الطلاء ، تحفظ الألوان ، وتخفف من بريقها ولكنها تجعلها أكثر بهجة وإمتاعاً من ذي قبل . وظل أبلينز يعمل إلى آخر أيامه ووافته المنية وهو يعمل مرة أخرى في تخطيط صورة أفرديتي الخالدة .

الفصل الخامس

پرکستلیز

وكانت خير آيات النحت في ذلك العصر وأعظمها روعة هي الضريح الذي أقيم لموسولوس Mausolus ملك هليكرنسس. وكان موسولوس مرزباناً من مرازية الفرس بالاسم ، ولكنه بسط سلطانه على كارييا Caria وأجزاء من أيونيا وليشيا Lycia ، واستخدم موارده الكبيرة في إنشاء أسطوله وتجميل عاصمته . ولما مات (٣٥٣) أقامت أخته وهي أيضا زوجته مباراة شهيرة في الخطابة تكريماً له ، واستدعت أشهر الفنانين اليونان ليشاركوا في إقامة ضريح يكون تذكراً جديراً بعبقريته . وكانت ملكة بطبعها كما كانت بزواجها . ولما أن اغتم أهل رودس فرصة موت الملك وغزوا كارييا غلبتهم بحيلها واستولت على أسطولهم وعاصمة بلادهم ، وما لبثت أن أملت شروطها على أولئك التجار الأثرياء^(٣٢) . ولكن حزنها على وفاة موسولوس هدرتها فلم تعش بعده أكثر من عامين ، قبل أن يتم الضريح الذي صار فيها بعد حديث الناس كلهم في بلاد الغرب . وكان اسكوباس ، وليوكاريز Leochares ، وپريتسيس Bryaxis ، وتمثيوس يعملون في جده وأناة لإقامة ضريح رباعي الشكل من ألواح من الرخام الأبيض فوق قاعدة من الآجر ، ويفعلونه بسقف هرمي ، ويزينونه بستة وثلاثين عموداً ، وبطائفة كبيرة من التماثيل الصغيرة والنقوش . وقد عثر الإنجليز في خرائب هليكرنسس عام ١٨٥٧ على تماثيل لموسولوس يمثل مرة أخرى كفاح اليونان مع الحاربات الخرافيات الأمزونييات . وبعد هذا النقش وما فيه من رجال

ونساء وجياد من أعظم روائع العالم كله في النقش القليل البروز وليست الأمزونات التي به نساء مسترجلات خلقت للحرب ، بل هن نساء ذوات جمال شهوانى ، ما أخلقهن بأن يثرن في اليونان عواطف أرق من عاطفة الحرب . وقد أضحي هذا الضريح هو وهيكلك لإفسوس الثالث من عجائب العالم السابع .

ويبلغ فن النحت وقتئذ ذروة مجده من نواح كثيرة . نعم إنه كان ينقصه الحافظ الدينى ، ولم يبلغ ما بلغته قواصر البرثون من جلال وقوة ، ولكنه استمد إلهاما جديدا من الرشاقة النسوية ، وبلغ من الجمال ما لم يبلغه ذلك الفن قبل هذا الوقت أو بعده . لقد صور القرن الخامس رجالات عراة ، ونساء مكتسيات ، أما القرن الرابع فقد آثر أن ينحت نساء عاريات ورجالات مكتسين ؛ وجعل القرن الخامس نماذجه مثلا عليا يحتذى الفنانون حذوها ولا يجيدون عنها ، وصبوا أو نحتوا حياة الإنسان الشقية في صورة خلاتق مجردين من العواطف يستريحون من عناء تلك الحياة وشئونها ؛ أما القرن الرابع فقد حاول فنانه أن يمثلوا في الحجر شيئا من الفردية والإحساسات البشرية . وأضحت للرأس والوجه في صور الرجال أهمية أكثر مما كان لها من قبل ، وقلت أهمية الجسم نفسه ، وحلت دراسة الأخلاق محل عبادة القوة العضلية ، وتسابق كل من كان ذا مال على أن تكون له صورة من حجر ؛ وتحمر الجسم من وضعه الجاهل المعتدل ، وصار يتكى مستريحا على عصا أو شجرة ؛ ومثل فيه التفاعل الحى للضوء والظل . وقد بلغ من حرص ليستراتس السكيونى على أن يكون واقعا إلى أقصى حد ، أن كان يعمل غلافا من الجص فوق وجه الشخص المراد تصويره ، ويصب فيه القالب المبدئى ، ولعه كان أول من فعل هذا من اليونان (٣٣) .

ويبلغ تمثيل جمال الجسم ورشاقتة حد الكمال على يدى پركستليز . والعالم كله يعرف أنه أحب فيرينى Phryene ، وأنه صور جمالها تصويراً مغلداً ، لكن أحداً من الناس لا يعرف متى ولد هذا الفنان أو متى توفى . وكان

ابنا وأبا لمثالين يعرفان باسم سفسدوتس Cephissdotus ، ولذا يحق لنا أن نقول إنه يمثل أعظم ما بلغته تقاليد أسرة من الفنانين المجددين الصابرين . وكان يعمل في البرنز والرخام على حد سواء ، وبلغ من شهرته أن كانت اثنتا عشرة مدينة تتنافس للحصول على خدماته ؛ منها كوس التي عهدت إليه في عام ٣٦٠ أن ينحت لها تمثالا لأفرديتي ؛ فنحت لها هذا التمثال بمساعدة فيريني ، ولكن الكوسيين ساءهم أن وجدوا الإلهة مجردة من الثياب ، فما كان من پرکستليز إلا أن هدأ ثورة غضبهم بأن صنع لها تمثالا آخر مكنتها ، وابتاعت نيدس التمثال الأول . وعرض نكومديز ملك بيثيا على نيدس أن يتناع هذا التمثال بكل ما على المدينة من ديون ، ولكن نيدس آثرت المجد الخالد على العرض الزائل . وأقبل السياح من جميع بلاد البحر الأبيض المتوسط ليشاهدوا التمثال ، وحكم الخبراء على أنه أجمل تمثال صنع حتى ذلك الوقت في بلاد اليونان كلها ، وقال الثرثارون إن الرجال كانت تستنار عواطفهم إلى حد الجنون حين يشاهدون هذا التمثال (٣٤) (*).

وكما أذاع تمثال أفرديتي شهرة نيدس في الخلفين ، وكذلك اجتذبت بلدة تسببيا الصغيرة إحدى بلاد بووتية مسقط رأس فيريني الساميين ، لأن فيريني وقد وضعت فيها تمثالا لإيروس (الحب) من نحت پرکستليز . ذلك أنها سألته يوما ما أن يقدم لها برهانا على حبه أجمل تمثال في منحته ، وأراد أن يترك لها الخيار ؛ ولكن فيريني أرادت أن تكشف بنفسها عن تقديره لأعماله ، فهرولت إليه في يوم من الأيام وأخبرته أن منحته يحترق ؛ فلما سمع هذا النبأ صاح قائلة : إن كان تمثال جنى الغاب وتمثال إيروس قد احترقا فها لول النكبة (٣٥) ؛

(*) و. م. منحص. انما كان صورة تملاب صوره هذا التمثال المنقرشة عل النقره انما ية التي ستر عليها ، أندانس المدينة .

واختارت فيريني من فورها تمثال إيروس وأهدته إلى مسقط رأسها(*) .
وكلن إيروس في أول أمره إله هزيبود Hesiod وخالقه ، ثم استحال
تفكره بركستليز شاباً حالماً رقيقاً ، يرمز إلى سلطان الحب على النفوس ؛
ولم يكن قد أصبح بعد كيوبد Cupid اللعوب الخبيث الذي نعرفه في الفنين :
الهلينستى والرومانى .

ولعل تمثال جنى الغاب المحفوظ في متحف الكبتولين برومة والمعروف
باسم إله الحقول والرعاة الرخامى صورة من التمثال الذى فضله بركستليز عن
تمثال إيروس . ويظن بعضهم أن جذع التمثال المحفوظ في متحف اللوفر
جزء من التمثال الأصيل نفسه^(٣٦) . وتمثال الجنى يصوره في صورة غلام
متين البنية مبهجاً سعيداً ، ليس فيه من جسم الحيوان إلا أذناه الطويلتان
القائمتان ؛ وهو ينكئ مراهقاً على جذع شجرة وقد لف إحدى قلمييه
بالأخرى . وقل أن نجد في الرخام تمثيلاً أصدق من هذا للراحة الكاملة .
فأنت ترى تراخى الحدوثة الساحر بادياً في الأطراف المرتحية والوجه المطمئن
الواثق . وربما كانت الأطراف مستديرة ناعمة فوق ما يجب أن تكون ؛ وذلك
لأن بركستليز لم يستطع لطول نظره إلى فيريني أن يمثل الرجال تمثيلاً صادقاً .
ويؤيد ذلك أن تمثال أبلو قاتل العظايا Apollis Sauroctonus نسأى إلى حد
يكاد يوصلنا على أن نضمه إلى تماثيل الخبثين الكثيرة بين التماثيل الهلينستية .

ويقول بوسنياس في عبارة موجزة إيجازاً يؤسف له إن من بين تماثيل
هيرايوم Heraeum في أولمبيا تمثالاً من الحجر لهرمس يحمل ديونيشس
من عمل بركستليز^(٣٧) . وبيننا كان علماء الآثار الألمان يتقبون في هذا

(٣٦) وأمر نيرون فجئ به إلى رومة ، حيث أحرق في النار التى شبت في عام ٦٤ م
وقد يكون تمثال كيوبد الستوسل Cupid of Centocelle المحفوظ في الفاتيكان صورة
منقولة عنه

المكان عام ١٨٧٧ إذ توجت جهودهم بالعثور على هذا التمثال مطموراً في طبقات من الأقدار والطين ظلت تراكم عليه عدة قرون . وليس في وسع القارئ أن يتخيل صورة حقيقية له من وصفه ، وصوره الشمسية ، والتماذج التي تعمل له ، بل على الإنسان أن يقف خاشعاً أمامه في متحف أولمبيا البصغير ، ويمر بإصبعه نخلسه على سطحه لكي يدرك ما في نسيج هذا اللحم الرخاى من نعمة وحياة ، أما موضوعه فهو أن الإله الرسول قد عهد إليه إنقاذ الطفل ديونيشس من غيرة هيرا وحمله إلى بحور الغابات والبحيرات ليربينه في السر . ويقف هرمس في الطريق ، ويضطجع على جذع شجرة ويمسك بعنقود من العنب أمام الطفل . وليس تمثال الطفل نفسه جيد الصقل ، كأن تمثال الإله الأكبر قد استفد جميع وحى الفنان . وقد ضاعت ذراع هرمس اليمنى وأعيدت إليه بعض أجزاء من السابقين ، أما بقية الجسم فيبدو أنها هي كما صاغتها يد الممثل . وتكشف الأطراف المتينة ويكشف الصدر للعريض عن قوة الجسم وصحته ، والرأس في حد ذاته آية فنية رائعة يجاله الأرسقراطى ، ومعارفه الرقيقة وشعره المنثنى ، والقدم اليمنى قد بلغت درجة الكمال حيث يندر الكمال في التماثيل . وكان الأقدمون يعدون هذا التمثال من أعمال الفنان الصغرى ، وفي وسعنا أن نحكم من هذا على مقدار ما كان يمتاز به هذا العصر من ثروة فنية عظيمة .

ويصف هوسنياس (٢٨) في فقرة أخرى مجموعة رخامية أقامها بركستليز في منقيا . ولم يعثر المنقبون إلا على قاعدة هذه المجموعة ، تحمل تماثيل لثلاث من ربوات الفن لعل الذين نحوتها هم التلاميذ لا الأستاذ نفسه . وإذا جمعنا ما في هوسنياس من إشارات إلى تماثيل بركستليز في الكتابات اليونانية التي كانت موجودة في أيامه ، خرجنا منها بنحو أربعين من الأعمال الكبرى (٣٩) ، وما من شك في أن هذه الأربعين لم تكن إلا جزءاً من إنتاجه العظيم . ونحن إذا درسنا القطع الباقية من هذه الأعمال نجد فيها ما نجد في تماثيل فدياس

من سمو وقوة وهيبة وإجلال ، وترى الآلهة قد أدخلت مكانها لفيريني ، وترى مشاكل الحياة القومية الكبرى قد أغفلت ليحل محلها الحب الفردي . ولكن ما من مثال قد فاق بركستليز في دقة الصياغة ، وفي قدرته التي تكاد تبلغ حد الإعجاز على أن يمثل في الحجر الصلب الراحة والرشاقة ، وأرق العواطف وبهجة الحواس ، والاستمتاع بالغابات . لقد كان فدياس فناً دورياً وأما بركستليز فكان أيونياً ، وإنا لنجد فيه مرة أخرى ما ينذر بغزه أوروبا التقافى الذي أعقب انتصارات الإسكندر .

الفصل السادس

اسكوباس وليسبوس

لقد كان اسكوباس ليرن Byron كما كان فدياس للثن وپركستليز لكيثس Keats . ولستا نعرف شيئاً عن حياة المثال القديم إلا من أعماله ، وهى الترجمة الحقة لأى إنسان ؛ ولكننا لا نعرف أعماله نفسها معرفة أكيدة موثوقاً بصنحتها . وإن الرووس القصيرة الممتلئة المنفرة للتماثيل المعزوة له ، أو النسخ التى يقال إنها منقولة عن التماثيل الأصلية ، لتظهره فى صورة الرجل المسرف فى قوته وفى نزعته الفردية . ولقد سبق القول إنه كان يعمل فى تيجيا مهندساً معمارياً ومثالاً معاً ، وإنه لا يفوقه فى قوته وتعدد كفاياته أحد فى جميع القرون التى بين فدياس وميكل أنجلو . وكل ما عثر عليه المنقبون من أعماله قطع قليلة من قوصرة ، أهمها رأسان أصيبا بكثير من التلف يمتازان بقصرهما وعرضهما واستدارتهما وبالنظرة العابسة الحافة ، وهى الصفات الغالبة على جميع أعمال اسكوباس ، ومنها تمثال مهشم لأطلنطا . ويشبه هذه البقايا شهاً عجيباً رأس ملياجر Meleager المحفوظ فى بيت مديشى برومة . وفى هذا الرأس أيضاً نرى الخدين الممتلئين ، والشفنتين الشهوانيتين ، والعينين المكتبتين ، والجهة ذات الحافة البارزة بروزاً قليلاً فوق الأنف ، والشعر الملوى الأشعث بعض الشيء ؛ ولعل هذا التمثال نسخة رومانية من تمثال ملياجر الذى نحتت اسكوباس ليكون جزءاً من مجموعة تمثل منظر صيد كلدوفى . وفى متحف نيويورك الفنى رأس آخر لا نكاد نشك فى أنه من صنع اسكوباس ، أو منقول عن رأس من صنعه ؛ وهو قوى بليد ولكنه وسيم ذكى ، وهو أصدق الرووس تمثيلاً لما بقى من آثار النحت فى العصور القديمة :

ويقول بوسنياس^(٤٠) إن اسكوباس قد «صَبَّ» في «إليس» تمثالاً من الشبه لأفرديتي الهندية جالسة فوق جدى من الشبه . ونحت في سيكون تمثالاً رخامياً لهرقليز لعل النسخة الرومانية المحفوظة في بيت لاندسلون بلندن منقولة عنه مباشرة . وجسم التمثال يدل على النكسة الفنية والعودة بالفن إلى الطراز العضلي البولكيثي ، والرأس صغير مستدير كالعادة ، والوجه يكاد يبلغ من الرقة وجوه تماثيل بركستليز . وقد أقام في ميغارا ، وأرجوس ، وطيبة ، وأثينة ما يكفى من الوقت لنحت تماثيل شاهدها بوسنياس بعد خمسة قرون من ذلك الوقت ، ولعله قد اشترك في تجديد بناء معبد أبلورس . وعبر بعدئذ بحر إيجة ونحت لنيدس تماثيلين لأثينا وديونيشس ، وكان له شأن كبير في أعمال النحت التي احتاجها بعض الأعمدة في هيكل إفسوس . وفي برجموم Bergamium نحت تمثالاً ضخماً لآريس Ares يمثله جالساً ، وفي كريسا في أرض إطروادة أقام تمثالاً لأبلوسميتيوس Apollo Smintheus ليخيف الجرزان ويطردهما من الحقول . وأقام في سمثريس Samothrace تمثالاً لأفرديتي كان من أسباب شهرتها العظيمة ، ونحت في بزنطية البعيدة تمثالاً لكاهنة باكس Bacchante ربما كان التمثال المحفوظ في متحف البرتوم بدرسدن والمعروف باسم ميناد الغامضة نسخة رومانية منه . وإن هذا التمثال الرخامى الصغير وحده نلحقيق بأن يرفع صانعه إلى مرتبة الفنانين العظام^(٤١)— فهو تمثال قوى النحت ، فخم الثياب ، فد في وقفته ، حتى في غضبه ، وجميل من كافة نواحيه . ويشير بلنى إلى تماثيل أخرى كثيرة من صنع اسكوباس كانت في أيامه قائمة في قصور رومة . منها تمثال لأبلو يرجع أنه هو الذى نقل عنه تمثال أبلو ئيسارودس Apollo Citharoedus المحفوظ في الفاتيكان ، ومجموعة تماثيل لپسیدن ، وثيتيس ، وأخيل ، وناپديز ، وهى كما يقول بلنى آية في دقة الصنع حتى لو أن صاحبها قد قضى حياته كلها في إتمامها ، ومنها تمثال لأفرديتي عارية يكفى . ولده لأن يذيع شهرة آية مدينة^(٤١) .

وملاك القول أن هذه الأعمال ، إذا جاز لنا أن نصدر حكماً على صاحبها يستند إلى بقايا قليلة ظنية ، توحى بأن لاسكوباس منزلة تقرب جداً من منزلة پرکستلیز . فهو يمتاز بالابتكار في غير إسراف ، والقوة في غير غلظة ، وبالتمثيل المسرحي للنوازع والعواطف والمزاج ، دون أن تشوه هذه كلها شدة متكلفة . لقد كان پرکستلیز يعشق الجمال ، أما اسكوباس فكان ينجذب نحو الخلق ، وكان پرکستلیز يرغب في الكشف عن الرشاقة والحنان في النساء ، وعن الصحة المبهجة والمرح في الشباب ؛ أما اسكوباس فقد اختار أن يمثل آلام الحياة وآسبها ، ورفع من شأنها بهذا التمثيل الغني البديع . ولو أننا كان لدينا من أعماله أكثر مما عثرنا عليه منها لما فضلنا عليه أحداً غير فدياس .

حسبنا هذا عن اسكوباس ، أما ليسبوس السيكوفى فقد بدأ حياته صانعاً وضيعاً في النحاس ؛ وكان يتوق إلى أن يكون فناناً ، ولكنه لم يكن لديه من المال ما يمكنه من أن يتعلم على معلم . غير أنه تشجع حين سمع يوپومس المصور يعلن أنه يفضل محاكاة الطبيعة نفسها عن محاكاة أى فنان مهما يكن قدره^(٢٢) . فلما سمع ليسبوس هذا القول انجبه من فوره إلى دراسة الكائنات الحية ، ووضع قانوناً جديداً للنسب في فن النحت ليستعاض به عن قاعدة بلكليتس الصارمة ؛ فأطال الساقين وقصر الرأس ، وزاد من ثخانة الأطراف ، وخلع على الصورة كلها كثيراً من الحيوية والراحة . ومن أعماله تمثال آپکسيومونس Arxyomenos وهو صورة لتمثال ديامنوس ، تختلف عنها من بعض الوجوه . فرجل بلكليتس الرياضي يربط عصابة فوق جبينه ، أما ليسبوس فيزيل الزيت والغبار عن ذراعه بمكشط ، ويبدو فيها أكثر نفاقة ورشاقة . وأكثر من هذا التمثال جاذبية وحيوية ، إذا جاز لنا أن نستند في حكمنا إلى الصورة الرخامية المحفوظة في متحف دلفى ، تمثال أچياس Agias الشاب التسالى النبيل . ذلك أن ليسبوس لم يكده يتحرر من القيود حتى أخذ يشق طريقه في ميادين فنية جديدة ، فاستبدل تصوير الفرد بتصوير

(٢١ - ج ٢ - مجلد ٢)

الطراز ، والزعة الانطباعية بالعرف والتقاليد(*) .
وكاد هو أن يتتبع النحت المصور عند اليونان . وقد قطع فليب حروبه وعشقه ليجلس أمام ليسبوس لينحت له تمثالا ؛ وسر الإسكندر من التماثيل النصفية التي نحتها له الفنان سرورا جعله يختاره دون غيره مثاله الملكي الرسمي ، كما منح من قبل أبليز وحده حق تصويره وإلى برجتلز حق نقش هذه الصور على الجواهر .

وثمة طائفة من أجهل التماثيل التي خلفها القرن الرابع في فن النحت لا يعرف من صنعها : منها تمثال من الشبه لشاب عثر عليه في البحر قرب مرثون ، ومنها نسخة قديمة لتمثال هرمس الأندرشى الذي صنع في القرن الرابع ، وتمثال رقيق لهيجيا المفكرة عثر عليه في تيجيا(**) - وكل هذه التماثيل في متحف أثينة ، وفي متحف بسطن رأس فتاة من طشيوز غاية في الجمال . ومن آثار هذا العصر ، بقدر ما وصل إليه علمنا ، معظم تماثيل نيوب التي نقلت إلى رومة من آسية الصغرى في أيام أغسطس ، والتي نراها الآن موزعة في متاحف أوروبا . وربما كان من آثار هذا العهد أيضاً التماثيل الأصلية الثلاثة من تماثيل أفرديتي التي تعزى إلى بركستليز : وهي تمثال فينوس المفكرة الذي جيء به من كهوا Capua والمحفوظ في متحف نابلي ، وتمثال فينوس المضطجعة المحفوظ في متحف الفاتيكان

(*) يقول ليسبوس ، في عبارة لو سمها مانت Mianet لسرمنها أيما سرور ، إن غيره من الثالين يصورون الرجال كما هم أما هو فإنه يصوم « كما يبلون لنايب (٤٣) » .

(**) وقد سرق هذا الرأس الجميل الذي يرى القارىء صورته في الصفحة الأولى من الجزء الأول من هذا المجلد ، من متحف تيجيا الصغير ، ثم عليه بعد بحث دام تسع سنين اسکندر فيلدلفيوس Alexander Philadelphus أمين المتحف القوي بأثينة في هري قمح بقرية من قرى أركاديا . وموضوع التمثال والمصر الذي صنع فيه غير معروفان حل وجه التحقيق . ولكن طرازه البركستيل يرجعه في ظننا إلى القرن الرابع . ويرى السيد فيلدلفيوس الخير الجواد أنه « درة تلج المتحف القوي » .

وتمثال فينوس أرلوس المتواضع المحفوظ في متحف اللوفر . وأعظم من هذه كلها من ناحية الجمال الناضج ، وعمق الشعور الهادئ ، تمثال ديمتر الجالس الذي عثر عليه في نيدس عام ١٨٥٨ ، والذي يعد الآن من أروع التحف المحفوظة في المتحف البريطاني . ولسنا نعرف موضوع التمثال على وجه التحقيق ، ولعله لا يعدو أن يكون أجمل صورة جنازية وصلت إلينا من العهود القديمة ، أو لعله يمثل إلهة التلال في صورة الأم الحزينة Mater dolorose ؛ تتحسر وهي صامتة على اغتصاب پرستوني . وقد مثلت العاطفة هنا في غير إسراف كما كان المثالون يفعلون في العصر الذهبي ؛ ويبدو في الوجه والعينين حنو الأمومة كله واستسلامها الصامت . وهذا التمثال مضافاً إلى تمثال هرمس ، لا تماثيل أفرديتي المتحبية المستعطفة ، هي روائع النحت الحية وآياته الخالدة التي أنتجتها بلاد اليونان في القرن الرابع قبل الميلاد .